المحاضرة الاولى: علم البلاغة (مفهومه ونشأته وتطوره وفروعه)

1البلاغة:

البلاغة هي الوصول إلى الشيء والانتهاء إليه ومن قولهم بلغت الغاية إذا انتهيت إليها وجاء في لسان العرب بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغة: وصل وانتهى» [1] والإبلاغ الإيصال ومنه قوله تعالى: «فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ» [الطلاق/2] أي قاربنه .

وسميت البلاغة بلاغة لأنها تُنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه، فقال (أبوهلال العسكري المتوفى 395هـ): « البلاغة من قولهم: بلغت الغاية إذا انتهيت إليها وبلَّغتُها غيري. ومبلغ الشيء منتهاه. والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته فسميت البلاغة بلاغة لأنها تُنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه [2]

وأورد ابن رشيق القيرواني المتوفى 406هـ) في كتابه العمدة [3] طائفة من الآراء في تحديد مفهوم البلاغة كما تصورها أصحابها وردت في هذه الأقوال:

قيل لأحدهم : ما البلاغة ؟ فقال: إصابة المعنى وحسن الإيجاز وسئل بعض الأعراب: من أبلغ الناس ؟ فقال: أسهلهم لفظا وأحسنهم بديهة.

وقال خلف الأحمر: البلاغة لمحة دالة.

وقال الخليل بن أحمد : البلاغة كلمة تكشف عن البقية.

وقال المفضل الضبي: قلت لإعرابي: ما البلاغة عندكم ؟ فقال: الإيجاز من غير عجز والإطناب من غير خطل.

وكتب جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي إلى عمرو بن مسعدة إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيرا وإذا كان الإيجاز كافيا كان الإكثار عيا.

وقيل لبعضهم: ما البلاغة ؟ فقال إبلاغ المتكلم حاجته بحسن إفهام السامع وذلك سمي

وقال آخر البلاغة معرفة الفصل من الوصل.

وقيل البلاغة حسن العبارة مع صحة الدلالة

ولعل مرجع هذا التباين في تعريف البلاغة هو اختلافهم في تحديد خصائص الكلام البليغ في بنيته اللغوية الخالصة فهناك من يعزوها إلى الإيجاز ،وهناك آخر يروقه الإطناب والاسترسال في الحديث

---

(1) ابن منظور ،لسان العرب ،مادة (ب ل غ)

(2) أبو هلال العسكري ،كتاب الصناعتين ،ص 9

(3) ابن رشيق القيرواني ،العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ،تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ،ط 5 ،دار الجيل ، القاهرة ، مصر ، 1 / 242 . 246

لذلك كان أقربُ تعريف لبلاغة الكلام هو «مُطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ،ومقتضى الحال مختلف فإن مقامات الكلام متفاوتة» فمقام التنكير يباين مقام التعريف ،ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد ومقام التقديم يُباين مقام التأخيرومقامُ الذكر يُباين مقام الحذفومقامُ القصر يباين مقام خلافه ،ومقام الفصل يباين مقام الوصلومقامُ الإيجاز يُباين مقام الإطناب ،والمساواوكذا خطاب الذكيّ يباين خطاب الغبي وكذا لكلّ كلمة مع صاحبتها مقام.

نشأة علم البلاغة : ما من شك في أنّ ظهور علم البلاغة كانت مُحتواة في ثنايا علوم عديدة لغويّة وشرعيّة ولم يكن استقلال مباحثها إلافي مراحل متأخّرة فكان في علم النحو ما يؤسّس لأحد أهمّ شروط فصاحة الكلام وهو مراعاة مبدأ القياس وفي موضوعات النحو ما يتقاطع كثيرا مع موضوعات البلاغة العربيّة وبخاصّة علم المعاني منهبل إنّ علم المعاني بحد ذاته يعد فلسفةالدراسة النحويّة وأرقى صورة بلغتها يومئذ ،فكتاب سيبويه نفسه لم يكن نحوا خالصا بل يشتمل على مختلف علوم العربيّة (..)وحديثٍ عن القراءات»والنحو والصّرف والبلاغة ،ومخارج الحروف [4]وإذا الكلام العربيّ قد وُجد لحفظ القرآن الكريم من اللأحن » الذي ما فتئ يستشري في البيئة العربيّة الإسلاميّة فإنّ البلاغة العربيّة أو جدتها أوبرّعت بوجودها أسئلة معرفيّة مُلْحة من قبيل» كيف يكون القرآن الكريم مُعجزا ؟ وأين يستقر مناط إعجازه ؟ولعلعلمَ التفسير أحد العلوم التي حاولت الإجابة عن هذه الأسئلة ذات الصلة بالبلاغيمّة» ا أثرى الحقل البلاغيّ بمفاهيم تمثل الظاهرة البلاغيّة في مختلف تجليّاتهاالأدبيّة والتخاطبيّة .

تطوّر علم البلاغة :

إن ممّا تتسّم به أيّة حركيّة معرفيّة علميّة أنّها لاتنشأ النشأة الأولى مُكتملة البناء«واضحة المعالم» إنما تكون بسيطة ابتداءً وتبدأ تتدرّج قليلاً قليلا عبر خط الزمن لتزدادنُضجا واتساعاً ودقة وبطء وإنّ الدرس البلاغيّ ليس بدعا في ذلك ؛ فقد قطع مراحلزمنيّة عدّةقبلوُولا إلى مرحلة التأسيس الفعليّ بالصورةالختاميّة التي يُرى عليها في مصنفاته المخصوصة.

المرحلة الأولى:

. تظهر من خلال كتاب 'مجاز القرآن" ل (أبي عبيدة معمر بن المثنى المتوفى 210 هـ)فبالرغم من أنّه لم يكن كتاباً بلاغيّا خالصا.إنّما كان كتابا في التفسير حيث تناول فيه صاحبه شرحا لألفاظ قرآنية بما يقابلها في كلام العرب» فقد تخللت بعضن تفسيره لآياتالقرآن الكريم ملحوظات بلاغيّة عديدة (5)

---

(4) ينظر : صالح بلعيد ،التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني ،ديوان المطبوعات الجزائرية ، سنة 1994 ، ص 70

(5) ينظر مازن مبارك ،الموجز في تاريخ البلاغة ص 42

-جهود الفرّاء المتوفى 207 هـ) هو أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء» من علماء الكوفة الأوائل» اشتغل بالنحو واللغة وبالأدب وفنونه» صاحب "معاني القرآن"» وهو كتاب عنى فيه بالتخريج النحويّ للآيات وبشرح الألفاظ شرحاً لغويّاً تؤيّده شواهد الشعر أو وجه الاستعمال المعروفة ؛ مستأنساً في كلّ ذلك بمذاهب العرب في كلامها وقد ضمّن مؤلّفه عدداً من الآراء البلاغيّة (6)

-جهود (الجاحظ المتوفى 255 هـ) في كتابه "البيان والتبيين" وهو كتاب شامل وفيه أشار إلى بعض الفنون البلاغيّة من استعارة وتشبيه وإيجاز وإطناب وسواه. ولعل الجاحظ كان من أوائل الذين تحدثوا عن موضوع الإعجاز وعللوه بما في القرآن الكريم من نظم غريب وما في تأليفه من تركيب بديع ؛ بل إنّه أفرد كتابا لذلك سمّاه "نظم القرآن" (7)

-جهود ابن قتيبة الدينوريّ المتوفى 276هـ) أحد تلامذة الجاحظ صاحب كتاب "مشكل القرآن" (8) تصدى من خلاله إلى الطاعنين في القرآن وفي أسلوبه؛ وفيه تحدّث عن العرب وعن العربيّة وما خصّها الله به من قوة بيان وجودة أسلوب وعن ظاهرة إعجاز القرآن» مشيرا إلى بعض المفاهيم البلاغيّة من مجاز واستعارة وقلب وإيجاز في الكلام وزيادة فيه وتكنيّة المعاني» بمخالفة ظاهر اللفظ معناه ومما تميز به ابن قتيبة عن سابقيه هو وضعه لكل لون من هذه الألوان باب مخصوصا.

-جهود (ابن المعتز المتوفى 296هـ) في كتاب "البديع"» يشمل البديع عنده كثيراً من فنون البلاغة » من استعارة وكناية وتشبيه ومطابقة وجناس على خلاف معنى البديع الذي عرف به عند المتأخرين.

. المرحلة الثانية :

- وتتصدر آثار هذه المرحلة جهود الإمام (عبد القاهر الجرجاني. المتوفى 471هـ) إذ وضع نظريتيّ علم المعاني والبيان في كتابيه الشهيرين "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" على الترتيب.

ثم يأتي تلميذ الجرجاني الزمخشريّ المتوفى 538 هـ) حيث أفاد من كتابيّ دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانيّ لتجسّد في تفسيره القيّم "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"» وفيه اهتم ببيان أسرار القرآن البلاغيّة ومظاهر إعجازه اللغويّة.

المرحلة الثالثة :

تزامنت هذه المرحلة مع انتعاش حركيّة الترجمة» حيث نقل المسلمون كثيرا من معارف الأمم الأجنبيّة: مما مكّن بلاغيّي المرحلة هذه من الاطلاع على ماله صلة بالبحث البلاغيّ » وفي ذلك جاءت جهود (أبي يعقوب يوسف السكاكيّ المتوفى 626هـ) من خلال كتابه "مفتاح العلوم"» وأفاد فيه من الفلسفة والمنطق اليونانيّين فأوجد للبلاغة قواعد أساسها التعليل والتعريف والتفريع والتقسيم» ويرى دارسون (9) أنّ البلاغة

---

(6) نفسه ،ص 38 وما بعدها

(7) نفسه ، ص 42

(8) عبد العزيز عتيق ،في البلاغة العربية ،علم المعاني ،البيان ،البديع ،ص 206

(9) نفسه ،ص 24 . 25

التعريفات على يديه إلى مجرد قواعد وقوانين سكبت في قوالب منطقية جافة» حالت بينها وبين غايتها الفنية في مخاطبة النفوس وتهذيب الأذواق وتنمية الملكات. ثم أعقبت جهود السكاكي فترة عرفت بالشروح وشروح الشروح. وبكتب الاختصارات فكان من الذين قاموا بشرح مفتاح السكاكي (قطب الدين الشيرازي المتوفى 710 هـ في كتاب سماه 'مفتاح المفتاح'» وكذا بهاء الدين السبكي في كتابه "عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح .

. فروع علم البلاغة

كانت البلاغة العربية في بادئ الأمر وحدة شاملة، كثيرا ما تجاوز فيها إلى مسائل ذات صلة بها وإن لم تكن منها. وسار الدرس بها من دون فصل بين مباحثها وظل الأمر كذلك حتى القرن الخامس الهجري أين ظهر وضع لنظرية "علم المعاني' على يد الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز"» كما أسس لنظرية "علم البيان"في كتابه "أسرار البلاغة."

والبادي واضحا لمتتبع تاريخ البلاغة العربية أنها اتسمت قبل السكاكي بمنهج يرمي إلى عدم الفصل بين عناصرها وفنونها لما في ذلك من خدمة للأدب؛ وإمداد بأسباب القوة والجمال حيث إن كل الأدوات البلاغية تعمل على الوصول الى درجة الإبداع والظاهر أن البون شاسع بين ما قصد إليه الجرجاني صاحب فكرة "معاني النحو" أو "النظم"» وبين ما قصد إليه السكاكي (10)

-1علم المعاني

علم المعاني في تقدير السكاكي هو الخواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام ما تقتضي الحال ذكره [11]

ويبدو أثر علم المعاني وأهميته في بيان وجوب مطابقة الكلام لحال السامعين فكانت المناسبة المقامية هي التي تحدد الصيغة المقالية .وبذلك كان علم المعاني محاولة لرصد هذه العلاقة التلازمية ما بين المقامات والمقالات.فالذكي يناسبه من الاعتبارات اللطيفة والمعاني الدقيقة الخفيفة مالا يناسب الغبي» (لكل كلمة مع صاحبتها) أي مع كل كلمة أخرى مصاحبة لها (مقام) ليس لتلك الكلمة مع ما يشارك تلك المصاحبة في أصل المعنى [12]

وعلى أساس من تلك الرؤية المنهجية جاء ث موضوعات علم المعاني التي وردت في القسم الثالث من كتاب مفتاح العلوم للسكاكي مرتبة على هذه اللائحة [13]

الخبر والطلب الإسناد الخبري واختلافه باختلاف السامعمن حيث خلو ذهنه منه أو الشك فيه أو

---

(10) ينظر:منير سلطان ،بلاغة الكلمة والجملة والجمل ،د/ط منشأة المعارف ،الإسكندرية ،مصر ، 1998 ،ص 12

(11) السكاكي ،مفتاح العلوم ،تح عبد الحميد هنداوي ،ط 1 ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ،2000 ،ص 149

(12) نفسه ،ص 23

(13) ينظر : السبكي ،عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ،تح : خليل إبراهيم خليل ،ط 1 ،دار الكتب العلمية بيروت ،لبنان ،2001 ،

الإنكار له ،الإسناد وبيان أحوال المسند إليه والمسند من حيث الذكر والحذف ،والتنكير والتعريف ،والتقديم والتأخير ،والتخصيص والمقتضيات البلاغيّة لذلك ،الفعل ومتعلقاته ،الفصل والوصل ،الإيجاز والإطناب والمساواة وبيان كيف أنها نسبيّة ،القصر وأنواعه وطرقه ،الطلب وما يندرج تحته من أنواع ومن أغراض بلاغيّة.

. 2 علم البيان

البيان لغة : الظهور والوضوح والإفصاح ، قال تعالى (هذا بيان للناس)

علمُ البيان اصطلاحا: (هو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه» وبالنقصان ،ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه) [14]

وسار القزويني على هدي السكاكيّ في تعريف البيان ،غيره أفصّل في مُراد اللفظ حيث قال: فالبيان علمٌ يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مُختلفة في وضوح الدلالة عليه ودلالة اللفظ إمّا على ما وضع له أو على غيره الثاني إمّا داخلٌ في الأوّل دخول السقف في مفهوم البيت» أو الحيوان في مفهوم الإنسان» أو خارج عنه خروج الحائط عن مفهوم السقف. أو الضاحك عن مفهوم الإنسان وتُسمى الأولى دلالة وضعيّة» وكلّ واحدة من الأخيرتين دلالة عقليّة» وتختص الأولى بدلالة المطابقة والثانية بالتضمّن والثالثة بدلالة الالتزام) [15]

وقد اختصّ هذا الفرع من علوم البلاغة بالحديث عن التشبيه بأركانه وأنواعه.وعن الاستعارة ببعض أنواعها وعن المجاز المرسل بعلاقاته المتعدّدة وعن المجاز العقليّ والكناية .

3علم البديع:

علمُ البديع واحد من فروع علوم البلاغة العربيّة» يختصّ في تحسين أوجه الكلام لفظيّةً كانت أم معنويّة» ويعودٌ نشأة هذا العلم إلى الخليفة العباسيّ الأديب المعروف بابن المعتز الذي اشتهر بكتاب "البديع". وتأتي منزلة هذا العلم ضمن علوم البلاغة.بالنظر إلى وظيفته التكميليّة لتحقيق بلاغة الكلام وفصاحته. بعد علمي المعاني والبيان يأتي البديع يُمثّل مرحلة الصّقل الفنيّ النهائيّة للكلام بعد تحقّق الهيكل الأول المكوّن من سلامة المبنى وتحقق المعنى.عرّف البديع الخطيبٌ القزويني قائلا: هو علمٌ يُعرَفُ به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة.) [16]واختلف علماء البلاغة قديما في حصر موضوعات علم البديع نظراً لاختلافهم في مفهوم المصطلح غايته أنّ السكّاكي قد آثر عدداً من المُحسّنات البديعيّة المعنويّة على غيرها و وقف عندها في كتابه» وتبلغ عشرين نوعا منها المطابقة والمقابلة ومراعاة النظير والمزاوجة و المُشاكلة والإيهام واللف والنشر والجمع ،والتفريق ،والتقسيم والجمع مع التفريق ،والجمع مع التقسيم والجمع مع التفريق والتقسيم ،وتأكيد المدح بما يشبه الذمّ ،والتوجيه

---

(14) السكاكي ،مفتاح العلوم ،ص 249

(15) القزويني ،الايضاح في علوم البلاغة ،ص 163

(16) نفسه ،ص 255

والاعتراض ،والالتفات ،والاستتباع المحسنات البديعيّة اللفظيّة التي وردها فهي الجناس ،ورد العَجّز على الصدر ،والسجع ،والقلب ، والاشتقاق ،والترصيع.